مطبوعات حديثة

التُحف

« لابن رشيق القيرواني وزميله ابن شرف »

أودع اليَّ المجمع العلمي رسالةً بهذا العنوان مهداةً من زميلينا الفاضلين محب الدين الخطيب وعبدالفتاح قتلان صاحبي المطبعة السلفية في مصر لا تتجاوز صفحاتها المائة والعشرين من القطع الصغير وهي مما عني بجمعه السيد ابي البركات عبدالعزيز اليمني السافي الراجكوتي الاستاذ بالكلية الشرقية في مدينة لاهور (عاصمة بنجاب الهندية) مشفوعة برسالة أخرى تنطوي على ترجمة ابن رشيق هذا سأتكلم عنها في فرصة ثانية ان شاء الله .

ولقد وضح لي مما طالعته في تلك الرسالة ان ابن رشيق لم يجمع شعره جال حياته و يدوّنه فبقيت فرائده مبعثرة تتلاعب بها ايدي الضياع الا ماوراه واستشهد به بعض المؤلفين من أساطنة التاريخ ونوابغ اهل الأدب مما جاء متفرقاً في كتب شتى فبعثت الغيرة السيد ابي البركات المشار اليه الى التماسه من مواطنه باذلاً الوقت والعناية حتى تسنى له الاشتمال عليه نتفاً ومقاطيع وابياتاً فذةً نسّقها في هذه الرسالة مرتبة على حروف المعجم وذيل صفحاتها بحواشٍ ذكر فيها المآخذ التي نقل عنها مع تعيين الصحيفة والطبعة واسم الكتاب المأخوذ عنه ثم شفع كل ذلك بشرح لطيف لما ورد في المتن من الالفاظ اللغوية التي قد تغرب معانيها على معظم القراء وهي طريقة حبذا لو تحداها عامة الكتبة والمنشئين لما ينجم عنها من الفائدة وصحة التثبت من الرواية لمن يعنيه ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما شعر الرجل فهو غاية الغايات في الرقة والطلاوة وحسن السبك ولصاحبه من سعة الخيال والقدرة على الابتكار والاجادة في مختلف المناحي وشتى المقاصد ما لا يضارعه فيه الا أفذاذ معدودون من فحول القريض . من اجل هذا رأيت ان أثبت هنا للقراء الافاضل طائفة صالحة من تلك التحف الغوال لتفكهة وذكرى . من ذلك قوله في وصف الزرافة :

(جمعت محاسن ما حكت فتناسبت ... في خلقها وتنافت الاعضاء)
(تخشبها بين الخوافق مشية ... بادٍ عليها الكبر والخيلاء)
(وتمدُّ جيداً في الهواء يزينها ... فكأنه تحت اللواء لواء)
(حطت مآخرها واشرف صدرها ... حتى كأن وقوفها اعياء)
(نعم التحافيف التي ادرعت به ... من جلدها لو كان فيه وقاء)

وقوله متغزلاً وفيه معنى رائع :

(ان كنت تنكر ما منك ابتليت به ... فان برءه سقامي عزَّ مطلبهُ)
(اشر بعود من الكبريت نحو فمي ... وانظر الى زفراتي كيف تلهبهُ)

وقوله وهو في غاية الابداع :

(سألتُ الارض لمْ كانت مصلًى ... ولمْ كانت لنا طهراً وطيبا)
(فقالت غير ناطقة لاني ... حويتُ لكل انسان حبيبا)

وقوله وفيه من لطف الصبابة ما شاء الوجد الصادق :

(ومن حسنات الدهر عندي ليلةٌ ... من العمر لا تترك لايامها ذنبا)
(خلونا بها ننفي القذى عن عيوننا ... بلؤلؤةٍ مملوءةٍ ذهباً سكبا)
(وملنا لتقبيل الثغور ولثمها ... كمثل جنوح الطير تلتقط الحبا)

ومثله وهو اعذب واطرب وفيه من سلامة الاختراع ما لا يخفى :

(قبلت خدًّا منه أضرم لوعتي ... وجعلت اطفئ حرَّها برضابه)
(وضممته للصدر حتى استوهبت ... مني ثيابي بعض طيب ثيابه)
(فكأن قلبي من وراء ضلوعه ... طرباً يخبر قلبه عما به)

وله مما جنا :

(لك مجلس كملت بشارة لهونا ... فيه ولكن تحت ذاك حديثُ)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(غنّى الذباب فظل يزمر حوله فيه البعوض و يرقص البرغوثُ)

ومن مبتكراته قوله من ابيات :

(كادت خلاخيل من اهوى تبوح به سرًّا وغصت بما فيهـا دمالجه)

وله في ذمّ الصباح وهو من غرر معانيه :

(كيف لا ابغض الصباح وفيه بان عني اولو الوجوه الصباح)

وله وهو انيقٌ رشيق :

(لو وُضع الورد على خده ما عُرف الخد من الورد)

(قل للذي يعجب من حسنه اقرأ عليـه سورة الحمد)

وقال يصف خالاً بين الجيد والخدّ :

(حبذا الخال كامنًا منه بين الـ ـ جيد والخد رقبـة وحذارا)

(رام تقبيله اختلاسًا ولكن خاف من سيف لحظه فتوارى)

وله وهو من الحكمة الرائعة بمكان :

(في الناس من لا يرتجى نفعه الا اذا مُسّ بالضرار)

(كالعود لا يطمع في طيبه الا اذا أُحرقَ بالنـار)

وله في وصف السحاب :

(سحاب حكت ثكلى أُصيبت بواحدٍ فعـاجت له نحو الرياض على قبر)

(ترقرق دمعًا في خدود توشحت مطارفهـا بالبرق طرزاً من التبر)

(فوشيٌ بلا رقمٍ ونسجٌ بلا يدٍ ودمعٌ بلا عين وضحك بلا ثغر)

وما جاء في الرسالة من شعر ابن رشيق فهو بالجملة آيات بينات ، اما زميله ابن شرف فهو شاعر متوسط الطبقة لا يدل ماورد في الرسالة من منظومه على خيال سامٍ وأسلوب ممتاز وهو في كل حال دون منظوم ابن رشيق بمراحل ومن أجود مايعزى اليه قوله :

(والكأس كاسية القميص كأنها لوناً وقدراً معصمٌ مخضوبُ)

(هي وردة في خده وبكأسها تحت القنـاني عسجدٌ مصبوبُ)

ومما تُعاب به الرسالة ما جاء في بعض محتوياتها من فحش الكلام وبذيئه ومما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يغتفر اثباته في كتب الأدب ولو وكل الامر اليَّ لاستجزتُ حذفه وانْ اخلَّ بشروط الأمانة اذ عارٌ على الأدب ان يُمزج بما يغري على سوء الأدب .

عضو في المجمع العلمي

سليم عنحوري